دور مدينة فاس في إشعاع أفكار التصوف: الإصلاح والتصوف

اعتبارا لأعمال أحمد زروق وأحمد ابن عجيبة

(د. تاماش ايفاني ,محاضرة في ملتقى تزنيت (4/11/2025

السؤال الرئيسي الذي أود أن أطرَحَ في البداية وأجيبَ في مداولتي هذه هو ما إذا سعى هذان الشيخان الصوفيان لإصلاح الطريقة بشكل عام أو لتقويم قلوب أفراد الطريقة فقط؟

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر في العالم العربي ما عُرف بعصر النهضة، حيث برزت حركة دينية تجديدية دعت إلى العودة إلى ما يُسمى بالحياة "الخالصة" التي عاشها السلف الصالح. وقد استُخدم مصطلح "الإصلاح" آنذاك بمعنى معالجة فساد المجتمع الاسلامي وتغيير الى ما هو غير مرضٍ، حيث الكلمة الرئيسية هي التغيير وأُطلق على هذه الحركة وصف "الإصلاحية" . وقد ادّعى روّاد هذه الحركة أنّهم يستخدمون هذا المفهوم وِفق دلالته الواردة في القرآن الكريم، غير أنّ المعنى القرآني لكلمة الإصلاح يدل في الأصل على إقامة الصلح، وتحقيق التوافق، وبسط السلام، لا على التغيير الجِذري الشامل. . فقال أبو القاسم القشيري في لطائف اللإشارات وهو يفسر الآية لا تُفسِدوا في الأرض بعد إصلاحِها ”إن الإصلاح هو إرسال القلب في أودية المِنى بعد إمساكِه عن أوصاف الإرادة.“

وبدأ في القرن الماضي استخدام مصطلح الإصلاح بمعنى إصلاح التصوف أيضًا في سياق تاريخ التصوف. وقد ظهر هذا المصطلح بالنسبة للتصوف لأول مرة في منتصف ستينيات من القرن العشرين للإشارة إلى الحركات الصوفية الجديدة والطرق الصوفية التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر (مثل السنوسية، والتيجانية، إلخ).

ونقرأ في احد الابحاث عن الإصلاح عند سِيدي أحمد زرّوق في كتابه عُدة المريد الصادق يقول "إن الاصلاحات عند زروق مرتبطة بمجالات عديدة من الحياة الدينية والاجتماعية. فجهود الإصلاح في العصر الحديث تُربَط عادة بالجانب الاجتماعي فقط، غير أنّ زرّوق وسّعها لتشمَلَ أيضاً مجالَ العبادة."

والغريب في هذه الجملة الأخيرة كلمة أيضاً إذ تُوحِي بأن زرّوق قد انشغل بإصلاحات اجتماعية تمسّ النظام المؤسسي الصوفي كلَه، بالمعنى الذي اتخذته الإصلاحات في القرنين التاسع عشر والعشرين، أي قبل أربعة قرون من عصر الإصلاح الإسلامي. كما تُقَدِّم هذاه الدراسة الأمر وكأنّ زرّوق استعمل لفظ الإصلاح نفسه بهذا المعنى الحديث قبل أن يُصاغ هذا المصطلح, بمعني reform أصلاً في العربية ـــ بل وكأن ذلك نشأ لا في الإسلام السُني، بل في أحضان التصوف

وفيما يخصّ مفهوم الاصلاح الحديث وعمل زرّوق المنشور من القرن الخامس عشر، حاولت أن أُجيب عن ثلاثةِ أسئلة:

(١) أولا هل استعمل زرّوق لفظ الإصلاح على الاطاق، وإن كان، فبأي معنى؟ والجواب عن السؤال الأول واضح لا لَبْسَ فيه: لا في هذا العمل قَيْدَ البحث ولا في سائر مؤلفات زرّوق المنشورة نجد لفظ الإصلاح، لا كمصطلح ولا في استعماله العادي.

(٢) السؤال الثاني إذا لم يستعمل زروق الإصلاح في المواضع التي يتحدث فيها باحثه وشارحه في العصر الحديث عن الإصلاح، فحينئذ:

(أ) هل ثمة مصطلح آخر يمكن أن يُفسَّر على أنه «إصلاح»؟

(ب) وإذا وُجد، فهل يمكن فعلاً فهمه كإصلاح اجتماعي، أي كمسعى لتغيير جِذْري في حياة الجماعات أو المؤسسات أو المجتمع الصوفي كلِهِ؟

(ج) وإذا لم يوجد، فما هي العبارات التي يستعملها زرّوق في المواضع التي يصفها بعض الباحثين بمحاولات إصلاح ديني أو اجتماعي؟

أما هذا السؤال الثاني، الأكثر تعقيداً، فيتطلب جواباً أدق. لقد اخترت بعض الأمثلة من كتاب عدة المريد لزرّوق لأبيّن ما يقوله فعلاً في المواضع التي يستحضر فيها مفسّره في العصر الحديث مصطلح الإصلاح.

فعلى سبيل المثال يتكلم الباحثون احيانا بالنسبة الى زروق عن ‟إصلاح الجماعة الصوفية يعني مكافحة البِدَع وتصحيح أصول الطريق‟، ويشيرون إلى الفصل الخامس

من عمل زرّوق المذكور، وهو لا يتجاوز ثلاث صفحات لكننا نجد هناك العبارات التالية:

”على كل واحد ممن هم بالفعل في الطريق أو ممن يسعَون إلى الدخول فيه ــــ أي الشيخ والمريد معاً أن يحذَر من أهل البِدَع، وألاّ يتَّبعهم.“

وفي هذا السياق يلفِت زروق النظر إلى ثلاث نقاط قائلا:

(١) أولا يقول زروق ”يجب إحياء الإيمان وهو المعنى الوسيط الشائع للفظ تصحيح هنا، وذلك بالالتزام بما أمر به الشارع (أي النبي محمد) ونهى عنه. فلا بدّ من اتباع نهج النبي لا نهج من ضلّوا وأرادوا مع ذلك أن يهدوا غيرهم. وهذا هو معنى قولِهم: رمياً في عَماية، أي قيادة في جهل، وهو يقابل المثل الشعبي الأعمى يقود الأعمى.“

(٢) وثانيا ايضا يقول ”لا بدّ من دراسة أحكام الله، ومحاسبةِ النفس، والعمل على أساس عِلْم صحيح أو بالاقتداء بمِثال موثوق قدوة، أي الشيخ.“

(٣) و ثالثا يقول زروق ”يجب معرفة أصول الطريق الذي يسلكه الإنسان أو ينوي سلوكَه ــــ وهنا ينقل كلام الجنيد البغدادي، المؤسّس الأكبر للطرق الصوفية اللاحقة: لا يُقتدى إلا بمَن عَلِم أصول الشريعة والتزم بها.]“

فإذن، لا نجد أثراً لإصلاح أو حركة تصحيحية بمعناهما الحديث بل هذه هي التنبيهات نفسُها التي كررها كلُ صوفي معتدل منذ القرنين التاسع والعاشر مثل الجنيد،

والسلمي، والكلاباذي، والسراج، والقشيري، والسهروردي، وغيرهم لمواجهة الغلوّ القائل بأن من بلغ الحقيقة لم يُعَدَ مقيَّدا بالشريعة.

وفي مواضع أخرى يستعمل زرّوق مصطلحات أخلاقية صوفية معروفة حيث يتحدث شارحوه في عصرنا عن الإصلاح: وهي تقويم الاستقامة، وإقامة التثبيت، واستقامة الاعتدال. كلُها تؤكد أنّ الفرد هو المكلّف. بالسعي إلى الطريق الصحيح، ملتزماً بشرع الله، مسترشداً بالغير عند الحاجة فقط.

وقد كان تعريف الاستقامة مشهوراً منذ رسالة القشيري وهو: ”درجة من أحوال القلب مملوءة بالكمال والتمام؛ بها ينال القلب بركات الله ويُصلَح؛ ومن لم يكن قلبه على استقامة بطلت مساعيه وتفرقت آماله“...

فأما الدراسات الحديثة فزعمَت أن زرّوق أراد إصلاح الطرق التي أفسدتها البدع بينما يقول زرّوق صراحة: ”المشكلة ليست في الطرق بل في جهل المريدين أي إنه تحاشى انتقاد الشيوخ والأقطاب، وعدّ البدع ثمرة الجهل عند المريدين بأصول الطرق وهذا الجهل أفضى إلى الاعتقاد الخاطئ بأن الحقيقة تُناقض الشريعة.“

وهذا على العكس تماماً من أفكار الإصلاح الحديثة التي ترى الحقيقة الصوفية وطريقها مناقضة للإسلام.

(٣) وأخيراً السؤال الثالث الذي أود أن أسألَ: هل استعملت الكتابات الصوفية قبل زرّوق الإصلاح مصطلحا، وإن كان، فبأي معنى؟ اما بخصوص السؤال الثالث، فالجواب واضح: لم تتعرّف الكتب الصوفية القديمة وقوائم المصطلحات على لفظ الإصلاح كاصطلاح صوفي، وإن لم يمنع ذلك من وروده بالمعنى القرآني أو العام.

وأبو حامد الغزالي العالم المتكلم والصوفي، استعمل لفظ الإصلاح كمصطلح في كتابه إحياء علوم الدين. إلا أنه عنده أيضاً يدور الأمر حول شفاء النفس، أو على الأكثر شفاء المريد بوصفه شيخاً بشرط أن يكون الشيخ نفسُه قد تزكّى. وهذا المعنى يظهر لاحقاً عند زرّوق.

لقد شعر ابن عجيبة الصوفي المغربي في القرن الثامن عشر بتعلّقٍ شديد بالمتصوّف زرّوق، الذي عاش في القرن الخامس عشر، ويُعَدّ في نظر كثيرين أوّل مُصلِح صوفي في بلاد المغرب. وعندما استخدم زرّوق وابن عجيبة المفاهيم المذكورة أعلاه مثل الاستقامة والتقويم أو ابن عجيبة كلمة الإصلاح، فإنهما كانا يسعَيان إلى تصحيح مسار الصوفي الفردي وتوجيه شعورَه الديني الشخصي، ولم يكونا يتحدّثان عن تغيير الطريق الصوفي برُمّته.

وتناول ابن عجيبة في شرحه الصوفي والنحوي للمقدمة الآجرومية الذي عنوانه الفتوحات القدسية في شرح المقدمة الآجرومية لفظ "الإصلاح"، إلا أنّه استعمله في كلا

الجانبين، الصوفي واللغوي، للدلالة على تصحيح الأخطاء النحوية في الشرح اللغوي، وتطهير القلب وتقويم السلوك في الشرح الصوفي.

وهو يقول "أعظم ما ينبغي للمرء بعد إصلاح دينه بتحقيق الإيمان والإسلام: إصلاح لسانه من اللحن بدراسة العربية واللغة. ... ثم يحتاج بعد إصلاح اللسان إلى إصلاح (يعني تصفية) القلب من الذنوب وتزيينه بالفضائل حتى يتهيأ لأنوار التوحيد وأسرار التجريد. فإصلاح اللسان دون القلب فساد، وإصلاح القلب دون اللسان كمال ناقص، وإصلاحهما معاً كمال الكمال. ... والنحو نوعان: نحو اللسان ونحو القلب. ... ومن لم يعرف نحو القلب — أي معرفة القرآن والحديث — فهؤلاء عند الله مرضى."

ويبدو أن استعمال الإصلاح هنا مستقى من المصطلح اللغوي القديم حيث يعني تنقية اللسان من اللحن، وربما من الغزالي حيث يعني الشفاء. وفي كل حال ابن عجيبة يتحدث عن إصلاح قلب الفرد لا عن إصلاح الطريقة الشاذلية أو التصوف عامة ولا عن المجتمع إطلاقا.

وفي أواخر القرن التاسع عشر، محمد عبده، رائد الإصلاح الإسلامي، وأثناء منفاه في لبنان، انشغل بنشر وشرح مقامات بديع الزمان الهمذاني وفي شرحه للفظ صوفي في المقامة الخامسة استعمل لفظ الإصلاح لا بمعناه الحديث (الإصلاح الاجتماعي) بل بمعنى الشفاء:

ويقول عبده "إن الصوفية من مذهب المسلمين الذين يعنون في أعمالهم بإصلاح القلوب، وتصفية السرائر، والاتصال بالأرواح، والحضور بين يدي الحقيقة العليا (الله عز وجل). ... ومن العارفين من يبلغون كمال البشرية بعد النبوة."

وفي النهاية اريد ان أُلَخِصَ بالإيجاز بعضَ استنتاجاتِ مداولتي

إن لفظَ الإصلاح بوصفه مصطلحا عند المجدّدين لم يكن مستعملاً في الأدبيات الصوفية قبل القرن العشرين. باستثناء ما قال الغزالي في كتابه الموسوعة في العلوم الدينية والأخلاق، وابن عجيبة الذي استعار هذا المصطلح من علم اللغة. ومعنى الإصلاح الأقرب عند كليهما: الشفاء، والتصفية، أو الاستقامة على الطريق.

وجهود التجديد والتصفية – ولا يمكن تسميتها إصلاحاً بمعناها الحديث – وُجدت في آداب المريدين الذي كُتب منه كثير منذ القرن العاشر. وكان الهدف دوماً إصلاح الفرد، وكان دور الشيخ ـــ من حيث المبدأ ـــ أن يبدأ بنفسه قبل مريديه، مرشداً لا واعظاً. بخلاف حركات الإصلاح في القرنين التاسع عشر والعشرين التي استهدفت المجتمع كله يعني الأمة الاسلامية، وسَعَتْ إلى تقويم الآخرين.

ويُشار إلى أنّ كلا من زرّوق وابن عجيبة كان له ارتباط وثيق بمدينة فاس، وقد شكّلت هذه المدينة مركزًا مهمًا في تكوينهما العلمي والروحي.